من أصداء الجمهورية العربية المتحدة

القضاء والانشاء

بقلم مطاع صفدي

الجمهورية العربية المتحدة ، حدث الامة الاعظم ،الحدث الايجابي الاول ، هو شيء آخر غير دموع الفرح ، وغير التهليل والتكبير ، والتظاهر ، ورفع اللافتات ، وتبادل التهنئة ، وحديث المقاهي ، وصفوف الطلاب . انه الحدث الايجابي الاول الذي خلقه العرب ، وابدعه العرب ، وجاء نقطة انطلاق لانشاء الحياة العربية من داخل .

ولقد يبدو ان مثل هذه التأكيدات العنيفة هي من نوع تلك الشعارات التي لم نكن من قبل ، نملك منها الا قوة رنينها وعظمة الامل الذي تبعثه في نفوسنا للانفتاح نحو مستقبل نحبه ولا نعرفه ،نستشرفه ولا نحيط به ، نصلي له كاله مجهول بعيد . ولكنها تأكيدات تحمل اعظم المضمون اليوم ، مضمونا يعادل مسؤولية فتح التاريخ ثانية ، ومبادهة العمل الحضاري المنتج في كنف الانسانية.

الا اننا لكي نبلغ محصول هذا المعين كما ينبغي ، يجبان نمهد له بالنظر الى بعض المغزى اليومي لهذا الحدث الاعظم . وهو يتمثل لنا في عديد من الاصداء نتابعها باختصار فيما يلي :

ما كان للعربي المؤمن ان يفاجأ بهذا الحدث . فلقد كان دائما نتيجة مرتقبة لتطور الامور في سوريا وفي مصر معا . ومثلما تنبأ العربي المؤمن ،حقق الواقع ، فالعقيدة الثورية الطليعية وضعت لها هدفا هو تحرير القطر العربي الاخر الذي انسجم بخطواته معه .

ولكن هذه النتيجة لم تكن محصول تطور آلي للتاريخ العربي المعاصر ، لم تكن ترسبا اخيرا لصراع الشروط الخارجية المادية في المجتمع ، لم تكن ، بكلمة واحدة ،نتيجة لعراك طبقي داخلي في قلب الامة . انها انقلابية قومية ، جمعت قواها من قدر البعث الذي تحياه الامة دون ان تعيه . انقلابية وعتها الطليعة فصبتها شعارات ثورية رمزية لحقيقة كبرى ، أتخم بها روح الجيل الجديد ، فما صبر لكي تتحقق فلسفة وفكرا نظريا ، وانما قذف بها نضالا صوفيا ، جعل كل القيم المثالية تتحد لاول مرة مع العمل ، التغيير في الواقع ، فأخضعت جميع شروط السلبية المضادة لحركيتها وجعلتها مادة اولية مطواعة لفضيلة الفكرة المناضلة ،لبراءة الجيل الفاتح ، لثورية البعث العربي المنبعث من صميم الامة قدرا ، ليس هو بالقدر ، وحتمية ليست هي بالحتمية ، انه قدر الوجود الحر الذي يصنع واقعه من طينة تفسخه ذاتها، وحتمية المرحلة البعثية التي تتفجر عن روحية الامة بكاملها معبأة في تخطيط الطليعة .. الطليعة وقد استغرقت الامة كيفا أولا ثم كما . استغرقت آمال الامة بشعاراتها الواضحة الاصيلة اولا ،وجندت كل البريئين منها في صفها الطليعي ثانيا .

وعاش الشعب العربي مرة ثانية تلك الثورية العبقرية المنتجة للحضارة وكان لا بد ان تتأجج هذه الثورية ضمن اول ذروة لها هي الوحدة العربية ، هذه الحالة السوية للوجود العربي الحقيقي . غير أن الخطر كان يتهدد هذه الثورية ، فتجوف من داخل ، وتجهض عن مسخ مشوه . عندما اريد لها ان تنحرف لغير هدفها الصحيح ، عندما اريد للتيار العظيم ، ان يحول من مجراه الطبيعي الذي حفره بقوته الخاصة ، الى الفسيح من الارض ، ليتبدد هناك ويغلبه الوحل وتستنفده الضحولة .

كاد النضال العربي في سوريا ، الطويل الشاق العنيد ، ان ينتكس وأن يتقهقر كأنه لم يكن ابدا ، عندما رفع شعار القومية العربية فوق رؤوس غير عربية ، وتلفظته السنة هجينة ، وشهقت له قلوب مصطنعة ، عندما اصبحت القومية العربية اسما للتغطية ، وبضاعة للتصدير واستهلاكا سياسيا مرحليا لفترة ذات ظروف معينة ، وأما العملية الدكناء ، فقد كانت تعد تحت هذا الستار .. ولكن مرة اخرى انقذ العرب العرب ، مرة اخرى استقلت سوريا ، وقتلت خطر التجويف الداخلي ، التجويف السياسي والتجويف العقائدي . وأما المضللون ، حتى من افراد الطليعة العربية ، اصحاب المنطق المرحلي ، لا المنطق الصوفي المطلق ، والمغامرة السياسية ، لا الرسالة الاصيلة ، والعمل اليومي السريع ، لا الانقلاب الجذري الابدي ، هؤلاء ادركوا اليوم ما معنى ان تستقل سوريا مرة ثانية ، ما معنى ان تتحقق الوحدة العربية ، ما معنى ان يثمر تطورها النضالي ثمراته الحقيقية لا المزيفة الهجينة . فالجمهورية العربية المتحدة ليست نصرا عظيما لمستقبل العرب فحسب ،ولكنه كان كذلك انقاذا لسوريا ، كان استقلالا جديدا لها .

هذا احد معاني الحدث الاعظم .

ومن معانيه كذلك :

١ ــ دحضت الجمهورية العربية المتحدة المنطق الذي كان يطرح مشكلة الوحدة العربية على المستوى النفعي . كان هذا المنطق يسأل على الشكل الآتي : ما هي المنافع التي تجنيها سوريا او مصر من هذه الوحدة ؟ ويراد من هذا السؤال ان يضخم من امر الاوضاع الجزئية التفصيلية للدولتين،وخاصة في الحقل الاقتصادي والحقوقي.

وجريمة هذا المنطق انه اولا من الناحية الذاتية ـ اي ذاتية السائل ـ يكشف عن سوء نية صاحبه ، وعن الهدف التهديمي الذي يرمي اليه وهو خلق جو من الشك والتساؤل والابهام ، وبث القلق خاصة في اوساط الماليين .. واكثر من هذا انه يهدف الى اثارة الحس النفعي الغريزي لدى اصحاب النفوس الضيقة .

وجريمة هذا المنطق ثانيا ، من الناحية الموضوعية ، انه يتعمد اهمال المستوى الحقيقي الذي يجب ان تطرح عليه قضية الوحدة . فهو تبرير اقليمي يناقش الامور من زاوية الغربة ، مفترضا بشكل مبدئي ، ان الحالة الطبيعية هي في وجود الدويلات العربية، معتنقا مذهب الكيانات المنفصلة، شأنه في ذلك شأن من يقبل على شركة بين تاجرين . بينما جاء حدث الجمهورية العربية المتحدة نفيا واقعيا لمثل هذا المنطق المختلق . فالوحدة هي لامة واحدة ، لعضوية واحدة، لكيان واحد . والوحدة هي الوضع الطبيعي للامة وليس ثمة مجال لمنطق كياني الا من قبل المستعمر فحسب ومن تبنى موقفه .

٢ ـ ومن معاني هذه الجمهورية صدق الحدس العربي بالتخطيط الثوري الراهن . انه يعلن عن واقعية الدعوة القومية كحل جذري للمشكلة السياسية في الاقطار العربية . ويقف حائلا مانعا دون محاولة الردة الى تخطيط العصور الوسطى القائم على الوهم الميتافيزيقي وتبرير عبودية الانسان ، ونقل المشكلة من المستوى التاريخي الزماني الانساني الى المستوى الاطلاقي اللاهوتي . فالجمهورية العربية تكسر الحلقة المفرغة التي كان يدور فيها الوجود العربي . انها حدث سياسي يصنعه الانسان بحريته الخاصة وقدره النابع عن وعيه وقوته معا . وانها حدث يبرهن على ميلاد العقل الارضي مرة اخرى لدى الجيل الثوري .

٣ ـ ومن معاني الجمهورية كذلك غروب اصنام عصر الانحطاط العربي ، عصر الاستعمار ، وعصر التآكل الداخلي في بنيان الامة . فارادة الوحدة هي التي تحل الان محل آلاف من عوامل التفرقة والنخر في خلايا الامة . ان مجرد وجود الوحدة معناه قضاء على امراض التجزئة في الطائفية والاقطاعية والشعوبية والاقليمية ، وغيرها من تراث الانحطاط الاستعماري .

هذه بضعة من المعاني السلبية الايجابية التي يمكن ان تستنبط من تحقيق الجمهورية كحدث سياسي . غير ان هذا الحدث هو ذاته نقطة انطلاق وتفجر لنتائج قومية وجودية لا نهاية لها تلتزم كيان الامة من داخل ، كما تؤثر مباشرة على مجرى الصراع الانساني في العالم . ولا يمكن التنبؤ بها الا من خطوطها العريضة المجردة . ومن اهمها واوعاها الى التحقق عودة التفاعل الاجتماعي العظيم على مسرح الامة بين كتلة بشرية ثورية طافحة بالامكانيات الجديدة والقوى العذراء المدخرة منذ مئات السنين التي عتقتها وصخرتها الاحداث وضاعفت من نمائها وتكثفها عوامل الكبت والمقاومة الخارجية وعوامل الخوف والتردد والعقدة القزمية في نفسية الانسان العربي هذا التفاعل الذي سيتولد عنه قريبا اتضاح مقياس جديد لحضارة جديدة ، يكون ادعى الى الاصالة ، والابتكار والانطلاق . وينعكس اثره على جميع اشكال الفعالية الاجتماعية من فنية وفكرية وعلمية وصناعية اقتصادية وسياسية .

ومن نتائج وحدة هذا التفاعل وعمقه واتساعه في آن واحد ، انه لن يبقى حبيس الحدود المصطنعة . فهو سيدفع بقواه كعامل تحريض وتفجير في الجماعات العربية المنعزلة في كثير من بقاع الارض العربية المحتجزة ضمن قماقم الاستعمار والاستغلال الداخلي . ولن تتأخر الوحدة الشاملة اطول مما تأخرت حتى اليوم .. لقد استكملت شروطها الداخلية ، وبقيت مسألة الظروف المناسبة للاطاحة نهائيا والى الابد بالحدود المفروضة .

لقد عاش الشباب العربي الطليعي الوحدة في نفوسهم ، وحققوها في سلوكهم ، وشعت املا عظيما من نضالهم وذخرا للحياة والمستقبل . فلما اهلت اليوم لم يعجبوا لها، انهم يعرفونها من قديم . واذا كان لهم ان يفرحوا حقا لها ، فهو فرح الفنان المبدع الذي تمت له ثقته بانتاجه ، فباشر مجده وهو ينبثق من قلبه لينفح على انتاجه البكر الاول .

غير ان الجمهورية العربية من جهة ثانية تضع هؤلاء الشباب انفسهم امام مهمة جديدة كل الجدة . انها تدعوهم الى ان ينقلبوا على نفوسهم القديمة ، وعلى عادات نضالهم السلبية المنصرمة . ان المهمة اليوم هي الانشاء ، هي خلق الانسان العربي الحر المبدع وتعميمه على المجتمع ، بدل الكتلة العجماء التي اتخمت واقعنا البشري فخنقته عصورا.

والانشاء يبدأ اولا من ترسيخ العقيدة العربية كثورة انشائية دائمة تصب انتاجها في جميع حقول الحياة الحديثة . وهنا لا بد ان نفرغ لعمل جذري عنيف . وهو تحقيق الانقلابية الانسانية في ذات الفرد ، في انفسنا ، بعد ان تغلبنا على معظم العوامل السلبية الخارجية . والمشكلة هنا تنطرح على الشكل الآتي : كيف يمكن ان ننشىء حضارة جديدة عربية الوجه ، انسانية المضمون ، وبذات الوسائل العصرية ، فنخاطب التاريخ بلغته ، ونؤدي له حصيلة تجربتنا الثورية كنظام سياسي ، ومفاهيم في الحياة الانسانية المشروعة ، وانتاجات في العلم والفن .

نحن اليوم نشهد انطلاق امة اصيلة تحمل كل امكانيات الحياة ، وتندفع الى افقها بتفاؤل الخالقين ، فكيف يمكننا ان نعي ، وأن نحسن الوعي ، في هذه المرحلة ، كما احسناه في مرحلة سابقة ، تلك هي عملية ثقافية كبرى ، تلقي بثقلها كله على عاتق الملتزمين من المفكرين والادباء ، ليؤدوا مرة ثانية ذخيرة بكرا لتثبيت عقلية الثورة المنشئة ، ومدها بالنسغ العربي الدائم ، وانتزاع اعظم النتائج منها .

دمشق — **مطاع صفدي**